

المؤلف المبينة والمكزرة أنّ ما يُروى إنما هو قصة فاعل كبير، الثورة، أو صوت الشعب وصوت الله، وقد ارتسمت قسماته في تصديه لمعارضة الرجعيّ؟ وهذا يعني أن نطرح التساؤل التالي: متى نبلغ ملء الإدراك في أنّ «لانتاك» أو سيموردان، غوقان أو الجمعية التأسيسية، روبسبيرير أو «لافانديه»، إنما هي التجليات السطحية لصراع أعمق يتكلم عليه المؤلف في المقام الأول؟ وبعد أن يكون القارئ قد أدرك هذا الأمر، أترأه يشرع في العدول عن تعيين هوية الشخصيات، التاريخية والأخرى «المتخيلة» التي تحفل بها الرواية فيما يتجاوز حدود ما هو قابل للحفظ؟ لمن الجليّ أنه في نتاج من هذا النوع، لا يكون من شأن الفرضية الفعلانية أن تتدخل لكي تحل سلسلة من التجريدات المتتالية، من البنى الخطابية إلى الحكائية، ومن الحكائية إلى البنى الإيديولوجية؛ والواقع أنّ الفرضية الموصوفة سرعان ما تنشأ في مجرى القراءة فترشّد الخيارات والتوقعات، وتُعين على تنقية القضايا الكبرى.

يمكن لنا أن نسقط عملاً أو حدثاً من الحسبان، ونعتبر في المقابل أنّ الخاتمت الفلسفية الطويلة التي يطلقها المؤلف إنما تندرج في ما هو ملائم للحكاية حقاً؛ ذلك أن بين جمهرة من الوجوه، ومن الحركات، والمغامرات، الأمور الوحيدة التي ينبغي الاعتداد بها، إنما هي الأمور التي تقول لنا ما تقوم به الثورة في سبيل تحقيق غايتها المنشودة، وكيف تؤثر على الأفراد وتحرك أفعالهم.

لا نقصدنّ بهذا القول الإشارة إلى أنّ محاولة بناء مربّعات وتعارضات، ومحاولة استخراج هيكل عميق للنص، هما شأنان حريّ بنا لإطراحهما جانباً. بل، بالعكس، أنها الطريقة الوحيدة لتسليط الضوء على ما «يهم» في النص، وعلى ما ينبغي أن يقوم به القارئ المتعاضد. ما أردنا قوله، هو أن بناء الهيكل العميق، السالف وصفه، إنما نتصوره نتيجة ختامية لبحث نقدي، وعليه فإن ذلك البناء لن يكون له أن يتدخل إلّا في مرحلة متقدمة (ومتكررة) من القراءة. غير أن القرار النظري، من وجهة نظرنا الحالية (إذ نحاول أن نلّم بالعقد النصية حيث أوجب وجود نمط معين من التعاضد) يصير مدعاة يأس. ولعن كنا ندرك، أقله، إذ تنجز إعادة البناء، أن النص